٣٠٩٥٦

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ـ الجمهورية العراقية
رئيس مجلس الادارة الدكتور محسن خليل الموسوي

دار الحرية

المجلد التاسع عشر
ربيع ١٩٩٠
العدد الأول

رئيس التحرير طراد الكبيسي

سكرتيرة التحرير هدى شوكت بهنام

www.dorat-ghawas.com

المحتوى

البحوث والدراسات

١ ـ الشعر الجاهلي في ضوء نظرية باري لورد ..... د. عادل سليمان ٥ ـ ٢٠

٢ ـ قراءة جديدة لـ (عيار الشعر) لابن طباطبا ..... طراد الكبيسي ٢١ ـ ٢٧

٣ ـ الاصول الاكدية لعدد من المفردات والمصطلحات المندائية ..... د. صبيح مذلول ٢٨ ـ ٣٥

٤ ـ الغزالي من الاكاديمية الانسايكلوبيدية ..... مدني صالح ٣٦ ـ ٤١

٥ ـ الخط والريازة في العمارة العربية الاسلامية ..... محمود حمدي ٤٢ ـ ٤٧

٦ ـ جهود الخلافة للتحرر من النفوذ السلجوقي ..... د. نافع توفيق العبود ٤٨ ـ ٥٥

٧ ـ كتاب الفخري في الاداب السلطانية لابن الطقطقي ..... د. ناجي التكريتي ٥٦ ـ ٦٩

٨ ـ الجانب العلمي في كتاب الحيوان للجاحظ ..... د. جليل ابو الحب ٧٠ ـ ٧٦

٩ ـ المنسوجات والسجاجيد العربية الاسلامية ..... د. صلاح حسين العبيدي ٧٧ ـ ٨٤

١٠ ـ الشعراء السفراء في عصر ما قبل الاسلام ..... احمد اسماعيل النعيمي ٨٥ ـ ٩٩

النصوص المحققة:

١١ ـ اعلام النساء في الاندلس من كتاب التكملة لابن الابار ..... د. منجد مصطفى بهجت ١٠٠ ـ ١٢٤

١٢ ـ مواد البيان لعلي بن خلف الكاتب ـ القسم السابع والاخير ..... د. حاتم صالح الضامن ١٢٥ ـ ١٥٥

١٣ ـ رسالة ابن قتيبة في الخط والقلم ..... هلال ناجي ١٥٦ ـ ١٧٠

١٤ ـ يحيى بن ماسويه في الجنين وكونه في الرحم ..... محمود الحاج قاسم ١٧١ ـ ١٧٣

١٥ ـ أنشاد النابغة امام النبي (ﷺ) ..... د. مخيمر صالح ١٧٨ ـ ١٨٣

١٦ ـ الكتاب ـ الكتاب سيبويه ـ مقدمة الكتاب ..... د. محمد كاظم البكاء ١٨٤ ـ ٢٠٦

الفهارس والبيليوغرافيات

١٧ ـ الشعراء التعليميون والمنظومات التعليمية ..... د. رزوق فرج رزوق ٢٠٧ ـ ٢٢٦

١٨ ـ مصادر الصغاني وموارده لمؤلفاته اللغوية ..... د. احمد خان ٢٢٧ ـ ٢٤٣

ندوات

١٩ ـ عبد الحق فاضل ـ الباحث اللغوي ..... د. محمد الطوكي ٢٤٤ ـ ٢٤٩

رأي

٢٠ ـ اللام المفخمة فونيماً ..... سعيد الغانمي ٢٥٠ ـ ٢٥٢

عرض ونقد

٢١ ـ كتاب الدلائل للحسن بن البهلول ..... د. كمال السامرائي ٢٥٣ ـ ٢٥٥

٢٢ ـ قراءة في كتاب ـ فصول التماثيل في تباشير السرور ..... د. يونس أحمد السامرائي ٢٥٦ ـ ٢٦٨

٢٣ ـ ملاحظات على ما أنفرد به القراء ..... د. علي حسين البواب ٢٦٩ ـ ٢٧١

٢٤ ـ تصحيح كتاب التعريف لابي عمرو الداني ..... د. حسام النعيمي ٢٧٢ ـ ٢٨٠

مناقشات وإستدراكات

٢٥ ـ تعقيب على مفهوم التراث العلمي العربي ..... طاهر التميمي ٢٨١ ـ ٢٨٦

٢٦ ـ إستدراكات على (بيليوغرافيا عن الرحلات الى العراق) ..... سلمان هادي طعمة ٢٨٧

٢٧ ـ اخبار التراث العربي ..... اسامة ناصر النقشبندي ٢٨٨ ـ ٢٩٢

٢٨ ـ ندوات حول التراث ..... هدى شوكة بهنام ٢٩٣ ـ ٢٩٧

٢٩ ـ رسائل جامعية ٢٩٨

www.dorat-ghawas.com

كتاب الفخري في الاداب السلطانية لابن الطقطقى

دراسة تحليلية و مقارنة

بمقدمة ابن خلدون وكتاب الامير لمكيافلي

دراسة

د . ناجي التكريتي

كلية الاداب / جامعة بغداد

ابن الطقطقى كاتب مؤرخ من القرن السابع الهجري، يقدمه صاحب كتاب الاعلام كما يلي: محمد بن علي بن محمد بن طباطبا العلوي، ابو جعفر، المعروف بابن الطقطقى (٦٦٠ - ٧٠٩هـ = ١٢٦٢ - ١٣٠٩م) مؤرخ بحاث ناقد، من اهل الموصل، خلف اباه سنة ٦٧٢هـ في نقابة العلويين بالحلة والنجف وكربلاء، وتزوج بفارسية من خراسان*. زار مراغة سنة ٦٩٦هـ، وعاد الى الموصل، فالف فيها سنة ٧٠١هـ كتابه الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية، وقدمه الى واليها فخرالدين عيسى بن ابراهيم، ولعله توفي بها[1].

اما كتابه الفخري في الآداب السلطانية، فله - برأيي - اهمية خاصة، لاسيما الجزء الاول منه، لانه يتناول السياسة المدنية وسلوك الملوك وتدبير الملك، ولانه اثر فيمن اتى بعده من الكتاب والمؤرخين، وكما ساتناوله واتتبعه في بحثي هذا.

يحتوي الكتاب على مقدمة وفصلين يذكر في المقدمة فضل العلم والكتاب والفصل الاول مخصص للسياسة المدنية وهو ما سنوليه امر المناقشة والتحليل والاهتمام، لان الفصل الثاني فصل تأريخي يحكي عن تاريخ الدولة الاسلامية بدءاً بالخلفاء الراشدين وحتى سقوط بغداد وهو فصل مختصر بالنسبة لكتب السير والتأريخ في هذا المجال وليس في جديد.

محمد بن علي بن طباطبا ابن الطقطقى يؤكد على ان العلم فضيلة، يزيد في تأكيده ان الطريق القويم لسيرة الملوك هو النظر في العلوم والاقبال على الكتب، ويستشهد بقول الله تعالى: «هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون» وبالحديث الشريف: «ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم»[2].

ابن الطقطقى يتبع في كتابه منهجاً استقرائياً في تتبع الاحداث السابقة من التأريخ الاسلامي ليقدمها الى الحاكم كي يكون على علم ودراية في معالجة الامور. بعد ان يؤكد ان العلم يزين الملوك اكثر مما يزين العامة، لان الملك اذا صار عالماً يمكنه ان يؤثر في الناس ويصلح امورهم. ومن الصدف الجميلة ان ابن الطقطقى يأتي بجملة طريفة تقول: (اذا كان الملك عالماً صار العالم ملكاً[3]، وتلك لعمري تشبه مقولة افلاطون المشهورة التي تقول ان الدولة تصلح اذا حكمها الفلاسفة، او اذا تفلسف الملوك[4]. ويحز في نفس ابن الطقطقى على ما يبدو لان بعض الوزراء في بعض الاحيان ممن بيدهم مقاليد الامور لايودون تعليم الملوك كما ينبغي لئلا يكونوا فطنين عارفين ببواطن الامور. ويضرب المؤلف مثلاً فقول: ان الوزراء كانوا قديماً يكرهون ان يقف الملوك على شيء من السير والتواريخ خوفاً ان يتفطن الملوك الى اشياء لايحب الوزراء ان يتفطن لها الملوك. وذلك ان المكتفي طلب من وزيره كتباً يلهو بها ويقطع

* ربما سيفسر لنا هذا الزواج جانباً من شخصية ابن الطقطقى وحقده على العرب وتزلفه للغزاة والدخلاء. (المورد)

www.dorat-ghawas.com

بمطالعتها زمانه، فتقدم الوزير الى خواصه بتحصيل ذلك وعرض الكتب عليه قبل حملها الى الخليفة، ولما جلب هؤلاء كتباً تحكي وقائع الملوك واخبار الوزراء ومعرفة التحيل في استخراج الاموال غضب الوزير وقال والله انكم اشد الناس عداوة لي، انا قلت لكم حصّلوا له كتباً يلهو بها ويشتغل بها عني وعن غيري، فقد حصلتم له ما يعرّفه مصارع الوزراء ويوجده الطريق الى استخراج المال، ويعرفه خراب البلاد من عمارتها، ردّوها وحصلوا له كتباً فيها حكايات تلهيه واشعار تطربه[٣].

هذه الحكاية الطريفة ترينا كيف ان الخليفة معزول حتى عن الكتب التي يقرؤها ويتعلم منها النفع والمعرفة. يأتي الكاتب بمثل آخر مشابه، وهو كيف ان الوزير المتمكن في الحكم اذا مات الخليفة يبايع شخصاً ضعيفاً ربما يختاره طفلاً غريراً كي يبقى نافذ الراي في الدولة، والخليفة له تابع وخاضع، ويتجنب ما استطاع ان يبايع رجلاً قوياً لئلا يطلع على اسراره ويحاسبه على املاكه ومباذله[٤].

يعطي ابن الطقطقي مثالاً على الملك الذي يجمع بين قراءة الاشعار المطربة والحكايات الملهية وكتب التأريخ والسير هو بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل حينذاك[٥]. بعد هذا يذكر عن سبب تأليفه لهذا الكتاب، ويقول انه كانه في طريقه الى تبريز، مر بالموصل وحضر مجالس صاحب الموصل فخرالدين عيسى بن ابراهيم، ويعرفه بانه افضل الملوك واعظمهم واكرم الحكام واحلمهم، ويستشهد بالشعر مادحاً لعدله وكرمه واعتداله بين الاسراف والبخل، دون ان يذكر حادثة عملية واحدة تبين لنا مدى عدله او كرمه او شجاعته او اعتداله او قوة عقله او غزارة علمه. المهم بعد هذا ان المؤلف يذكر انه ذكر اسمه في مجلس الملك هذا فاستدعاه واكرمه، ولذا يقول: ورايت ان اخدم حضرته بتأليف هذا الكتاب، ليكون تذكرة له وتذكرة لي عنده[٦].

ابن الطقطقي يذكر انه تكلم في الكتاب هذا عن احوال الدول وامور الملك، وذكر فيه ما استظرفه من احوال الملوك الفضلاء، واستقرأ من سير الخلفاء والوزراء[٧] انه يخص في ذلك الفصل الاول، وهو مدار بحثنا، فيشير الى انه تكلم عن الامور السلطانية والسياسات الملكية، وما هي صفات الملك وميزاته عن الآخرين، وما يجب ان يكون عليه وما يجب عليه ان يتجنبه من الخصال، وما يجب له على رعيته، وما يجب لهم عليه[٨] الجميل فيه انه يذكر في مقدمة الكتاب، انه قد التزم امرين في تأليف الكتاب، اولهما السير مع الحق والنطق بالعدل وترك سلطان الهوى، والثاني التعبير بعبارات واضحة كي يتم الانتفاع بها[٩].

الكتاب كتب خصيصاً لملك ليتنفع به في حكمه بعد ان يقرأه فيطلع على الاحداث السابقة وسياسة الملوك فيها ومعالجة الوزراء للقضايا، ولذا فان مؤلفه يقرر ان الكتاب يحتاج اليه من يسوس الجمهور ويدبر الامور. ان ملك مدينة صغيرة في حاجة اليه كحاجة الملك العام الطاعة، كذلك يحتاجه الى جانب الملوك الوزراء والسفراء ومن يجالس الملوك ويذاكرهم في امر الرعية وقضايا السياسة والسير، ويناقشهم في اخبار الممالك السالفة وما جرى من اخبار[١٠]. يبالغ ابن الطقطقي في مدح كتابه هذا ويقول انه انفع من كثير من الكتب التي يتداوله الناس في عصره ويفتتنون في قراءتها، ومن الكتب التي يذكرها ويفضل كتابه عليها كتاب الحماسة، وكتابي المقامات الحريرية والبديعية[١١] ان من حق المؤلف ان يمدح كتابه، ولكننا نرى انه قد أخطأ المقارنة لان كتاب الحماسة في الشعر ينتفع به الاديب والشاعر وعب الادب، وكذلك المقامات فتتميز بأسلوبها القصصي الجديد وبلاغتها الساحرة، فهذه كتب ادب لايجوز لابن الطقطقي ان يقارن كتابه السياسي ـ التأريخي هذا بتلك الكتب الادبية. لعله أقرب الى الصواب عندما يقول: إن من اعتراه ريب فليتأمل الكتب المصنفة في هذا الفن، فلعله لايرى فيها كتاباً اجمع للمعنى الذي قصد به من هذا الكتاب[١٢].

وقبل ان استطرد في تحليل آراء ابن الطقطقي في الدولة والملوك، وما هي وسائل الملوك الناجعة في سياسة الدولة، لابد ان اشير الى وجود تشابهات كثيرة في الاسلوب والمضمون، بين كتاب الفخري لابن الطقطقي وبين كتاب سلوك المالك في تدبير الممالك لابن ابي الربيع، والذي عاش في القرن السابع الهجري، وهي الفترة ذاتها، التي كتب فيها ابن الطقطقي كتاب الفخري[١٣]. ولا اشك في ان ابن الطقطقي قرأه واطلع عليه، ولكن لاادري سبب تجاهله له وعدم ذكره.

يفتتح ابن الطقطقي الفصل الاول المخصص للامور السلطانية والسياسات الملكية ـ والذي هو مجال بحثنا ـ فيقول ان الفصل ليس مخصصاً في اصل المُلك وحقيقته ولايخوض في مذاهب اصحاب الآر، في الامامة، وانما الفصل مقتن للسياسات والآداب التي ينتفع بها الحاكم في سياسة الرعية وتحصين المملكة، وفي اصلاح الاخلاق والسيرة[١٤]. يبدو ان المؤلف لايريد ان يحشر نفسه في اجتهادات المتكلمين عن الامام الصالح للملك، ومن هو الاحق بالخلافة. ان الكتاب اشبه

www.dorat-ghawas.com

بالنصائح والتوجيهات للسلطان ليكون عادلاً في ملكه وسيرته، لاسيما وان المؤلف كتب كتابه هذا في ظل الدولة الا يلخانية حين لاأثر لوجود الخلفاء والخلافة.

يشترط المؤلف في الملك الفاضل ان تكون فيه خصال حميدة، واهم الخصال التي يذكرها العقل، لان العقل اصل الفضائل وبه تساس الدول والملل، وكذلك العدل، لان به تستغزر الاموال وتعمر الاعمال وتستصلح الرجال، والعلم الذي هو ثمرة العقل وبه يستبصر الملك فيما يأتيه ويأمن الزلل في احكامه. كذلك الخوف من الله، لان الملك ! برأيه - متى خاف الله أمنه عباد الله. والعفو عن الذنوب وحسن الصفح عن الهفوات، لان الملك بهذه الخصلة يستميل القلوب وتصلح النيات. الكرم كذلك من الخصال التي تستحب في الملوك، لان الملك في الكرم يستميل القلوب ويحصل على النصائح من العلماء ويستخدم الاشراف. الهيبة، ويعني ان يكون الملك مهيباً كي يحفظ نظام المملكة ويحرس من اطماع الرعية. كذلك يذكر المؤلف - صفة حسن السياسة كفضيلة اساسية للملك، لانه بها يحقن الدماء ويحفظ الاموال ويمنع الشرور - ويقمع المفسدين ويقضي على الفتنة والاضطراب. والوفاء بالعهد صفة اساسية للملك، لانه بهذه الفضيلة يسكن القلوب ويطمئن النفوس، وان الرعية تثور به، والخصلة الاخيرة التي يرتأيها ابن الطقطقى في الملك، وان يكون له اطلاع واسع على غوامض احوال المملكة ودقائق امور الرعية ومجازاة المحسن على احسانه والمسئ على اساءته[١٦].

لاشك ان هذه الفضائل العشر التي يريدها ابن الطقطقى ان تتوفر في الملك اساسية وضرورية، ولاسيما الفضائل الثلاث الاول، واعني بها فضائل العقل والعلم والعدل، فهي لعمري فضائل مهمه في الذي يتولى امور السلطة وسياسة الممالك. الذي استغرب منه ان ابن الطقطقى يصيب حيناً ويخطئ حيناً آخر عندما يأتي بالامثلة والشروح المستفيضة مدللاً صحة راية باخبار الملوك العملية وتعاقب الدول، فهو بعد ان يذكر صفة العدل - مثلاً، يضرب لنا مثلاً عن افضلية السلطان العادل فيقول: «ولما فتح السلطان هولاكو بغداد في سنة ست وخمسين وستمائة»[١٧] اعتراضي هنا ان يستعمل مؤرخ وكاتب في فلسفة التأريخ وسياسة الدول كلمة «فتح» - بغداد، بدلاً من سقوط بغداد، أو تخريب هولاكو لبغداد، والمؤلف كغيره من المؤرخين وكتاب السير والتأريخ، يعلم علم اليقين ان كلمة «فتح» تستعمل فقط لفتح المسلمين للبلدان، لا لخرب فاتك مثل هولاكو. بعد هذا يذكر المؤلف وفي الصفحة ذاتها، ان هولاكو بعد دخوله بغداد استفتى العلماء: ايهما افضل السلطان الكافر العادل ام السلطان المسلم الجائر؟ وبعد ان جمع هولاكو العلماء في المستنصرية ووقفوا على الفتيا احجموا عن الجواب، ولكن احد العلماء واسمه رضي الدين على بن طاووس عندما راى احجامهم تناول الفتيا ووضع خطه فيها بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر، فوضع الناس خطوطهم بعده[١٨] لاشك ان ابن الطقطقى يغالط نفسه وينسف فضيلة العدل من اساسها، ننظر الى هذه المسألة من شقين متوازيين لنرى تهافت مثل ابن الطقطقى. الشق الاول ان المؤلف يعرف جيداً عدم جواز تأمير الكافر على المسلم في اية حال من الاحوال، والشق الثاني ان ابن الطقطقى يذكر في الصفحات الاخيرة من كتابه وبعد ان دخل جيش هولاكو بغداد: «جرى من القتل الذريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ما يعظم سماعه»[١٩] كيف اذن يوحي للقارئ من بعده ان هولاكو ملك عادل؟ لاأشك ان الروح الشعوبية تتقمص جسد ابن الطقطقى هذا، لاسيما وانه يدري جيداً ان هولاكو قتل افاضل علماء بغداد، ويبدو من الاسم الذي يذكره وهو رضي الدين على ابن طاووس انه ليس من العلماء الكبار في بغداد والا قتله هولاكو كغيره، كما ان اسمه واستمالته للتوقيع والتأييد على ان هولاكو اكثر عدالة من المستعصم، توحي بفارسيته وشعوبيته. لم يذكر لنا التأريخ ان المستعصم كان حاكماً ظالماً، وانما جاء عهده في دور انحطاط سياسي وتراكم عصور دولة يمتد الى تأريخيها الى اكثر من خمسة قرون من الزمان، ثم كيف يجوز لفقيه او عالم أو مؤرخ ان يجيز تسمية هولاكو بالسلطان العادل؟

العلم الذي يريده ابن الطقطقى في الملوك، هو ليس التبحر في غوامض العلوم والاغراق في طلبها، وانما المراد من العلم في الملك ان يناقش ارباب العلم والمعرفة في المجالس[٢٠] انه يريد من الملك ان يكون مستنيراً له تصور عام في امور السياسة وطريقة جباية الضرائب، واجلال العدل في الدولة، اما الملك الفاضل الذي يطلبه مؤلف كتاب الفخري، فلا شك ان رئيس الدولة الفاضل قد ناقش شروطه فلاسفة الاسلام وافاضوا في البحث فيه منذ الفارابي وحتى ابن ابي الربيع صاحب كتاب سلوك المالك في تدبير الممالك. يعطى ابن الطقطقى بعض

www.dorat-ghawas.com

الامثلة على سير بعض الملوك والوزراء مستشهداً بتأريخ الدولة الاسلامية. يفرق ابن الطقطقى بعد ذلك في فقرة خاصة بين ملوك الفرس وملوك العرب وملوك المغول، فيقول ان ملوك الفرس كانت علومهم الحكم والوصايا والهندسة، وملوك الاسلام كانت علومهم علوم اللسان كالنحو واللغة والشعر والتواريخ، والدولة المغولية علومها علم الحساب وحصر الدخل والخرج لضبط المملكة وعلم الطب لحفظ الابدان وعلم النجوم لاختيار الاوقات[٢١]. لاشك ان ابن الطقطقى في حكمه هذا اما ان يكون متحاملاً حاقداً على العرب والمسلمين او انه جاهل بتأريخ العلوم عند العرب وتشجيع الملوك والوزراء العلماء والاطباء والمهندسين والفلكيين.

هل ينسى ابن الطقطقى ان خالد بن يزيد الاموي اشتغل بالكيمياء وطلب ترجمة كتب العلوم؟ وابو جعفر المنصور الذي امر بترجمة كتب الطب؟ ومن هو اكثر حكمة وتشجيعاً للعلوم والترجمة في تأريخ الملوك من المأمون. ودار الحكمة اشهر من ان نشير اليها في هذا البحث. ملوك العرب على اختلاف عصورهم شجعوا العلوم ودراستها وامروا بترجمة كتب الفلسفة واقاموا المراصد الفلكية وشقوا الترع والأنهار وأمروا ببناء السدود وهذه كلها تحتاج الى معرفة ناضجة بعلوم الهندسة.

استوقفتني اشارة جاءت في ذكر ابن الطقطقى في فضيلة الخوف من الله بالنسبة للملوك، ان امير المؤمنين علياً بن ابي طالب رضي الله عنه استدعى بصوته بعض عبيده فلم يجبه، فدعاه مراراً فلم يجبه، فدخل عليه رجل، وقال: ياامير المؤمنين انه بالباب واقف، وهو يسمع صوتك ولايكلمك، فلما حضر العبد عنده، قال: اما سمعت صوتي؟ قال: بلى، قال: فما منعك من اجابتي؟ قال العبد: امنت عقوبتك، قال علي عليه السلام: الحمدلله الذي خلقني ممن يأمنه خلقه[٢٢] الحقيقة ان هذه القصة المفتعلة تسيئ الى سيدنا علي (ع) اكثر مما تمجد ذكره، فان مما لاشك فيه ان امير المؤمنين اشتهر بالشجاعة والفروسية والزهد والحلم وصفات كثيرة لاحصر لها، ولكن هل من المعقول ان علياً وهو خليفة رسول الله وابن عمه الذي تهابه الاقران والفرسان، يمتنع انسان عن اجابة ندائه؟ اظن ان مثل هذه القصة ربما تتناقلها العامة وليس من الجدير بمؤرخ سياسة وادب ان يسطرها وكأنها حقيقة واقعة.

يناقش ابن الطقطقى فضيلة العفو عن الذنوب وحسن الصفح عن الهفوات فيجيد بذلك اجادة تامة لاسيما وهو يأتي بالامثلة والخطب والاشعار واستقراء الاخداث[٢٣]. انه يعتبر ان فضيلة العفو، عند الملوك من اكبر الخصال، لان بها تستمال القلوب وتصلح النيات. لاشك - برأيي - ان الكاتب مصيب في رايه هذا، لاسيما وهو يبدأ الامثلة بالاستشهاد بقوله تعالى: «وليعفوا وليصفحوا الا تحبون ان يغفر الله لكم». ان ابن الطقطقى لا ينسى ان يرد على الذين يرون ان الحقد خصلة محمودة في الملك، مثل بزر جمهر الذي يقول ان الملك يجب ان يكود احقد من جمل. يناظره صاحب كتاب الفخري معارضاً فيقول: كيف يقال كذلك، والملك متى كان حقوداً فسدت نيته لرعيته، فمقتهم وقلت شفقته عليهم، ومتى أحسوا بذلك تغيرت نياتهم له وفسدت بواطنهم. ان الملك الذي يريد ان يديم ملكه، لايمكن له بلوغ اغراضه الا بصفاء قلوب رعيته، وان الملك الحقود لايكسب سوى تنغيص عيشه وتبغيض رعيته اليه وايحاشهم منه. ابن الطقطقى يضيف أيضاً ان الناس مركبون على الخطأ مجبولون على تشمير الطباع، وما أكثر ما تصدر منهم موجات الحقد، فلا يزال الملك طول دهره يعاني من الغيظ والحقد عليهم ما ينغص عليه لذته، ويشغله عن كثير من مهام مملكته، وما اكثر ما راينا الرعية او الجند قد وثبوا على ملوكهم فسلبوهم رداء المملكة بل رداء الحياة[٢٤].

بعد هذا الرأي الاخلاقي السديد الذي يطلبه ابن الطقطقى من الملوك في العفو والصفح ونحذر من الحقد خوفاً من ثورة الشعب. يأتي بعد ذلك بالامثلة فيخلط بين الامور وتشتبه عليه الاحداث. ليته اقتصر بابداء الرأي دون ذكر المثال، لانه افسد بذلك - ربما دون قصد - المثال سااراده في نصيحة الملوك بالالتزام بفضيلة الصفح والعفو عند المقدرة. بعد ان يذكر ابن الطقطقى كيف ان الرعية او الجند وثبوا على ملوكهم فسلبوهم رداء المملكة بل رداء الحياة، يضيف قائلاً: «ابتدئ من عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد وثب عليه ابو لؤلؤة فقتله ثم ثنّي بعثمان ابن عفان رضي الله عنه وانظر كيف اجتمع عليه رعيته من كل جانب فحاصروه في داره اياماً، ثم دخلوا عليه فقتلوه والمصحف في حجره، ثم ثلّث بعلي بن ابي طالب رضي الله عنه، وقد ضربه عبدالرحمن بن ملجم بسيفه فقتله. هذا في الصدر الاول والناس ناس والدين دين، ثم تنقل دولة فدولة واياماً فاياماً، الى اواسط دولة بني العباس، فانظر منذ عهد المتوكل الى عهد المقتفي ما

www.dorat-ghawas.com

جرى على واحد واحد من الخلفاء من القتل والخلع والنهب، بسبب تغير نيات جنده ورعيته، فهذا سمل وذاك قتل والآخر عزل، ثم اسرح طرفك في الدوليتن البويهية والسلجوقية تر من هذا الباب عجباً»[٢٥] لاشك ان ابن الطقطقى قد خلط بين الامور او قد اختلطت عليه الامور، والا لم يذكر احد قبله قط ان الخلفاء الراشدين الذين ذكرهم او احدهم قد قتل بسبب حقده او بسبب حقد الرعية عليه، وكذلك اغلب خلفاء بني العباس الذي اشار اليهم، فانما السبب او الاسباب هي المداخلات السياسية والانشقاقات الفئوية، وتدخل الفرس والموالي والاتراك في جسد الدولة.

عند ذكر خصلة الكرم في الملك، ينسى ابن الطقطقى ان كتابه يؤرخ لملوك العرب والمسلمين، فيعطي مثلاً على كرم الملك، بالملك او كتاي بن جنكيز خان ويصفه بالملك العادل و الملك الذي طغى كرمه على جميع كرام الملوك[٢٦]، دون أن يذكر حالة واحدة ترينا كرم هذا الملك الاعجمي.

الشئ الذي اود ان اقوله بعد هذا، ان صاحب الفخري قد اجاد بذكر الخصال العشر التي يجب ان يتحلى بها الملوك. انه بعد ذلك يستطرد فيقول ان على الملك الا يستبد برايه بل ان يشاور في الملمات خواص الناس وعقلاءهم، ومن يتفرس فيه الذكاء والعقل وجودة الراي وصحة التمييز ومعرفة الامور، يستشهد بذلك بقول الله تعالى «وشاروهم في الامر»، ثم يذكر ان رسول الله (ﷺ) كان يشاور اصحابه دائماً. ينتهي ابن الطقطقى بعد ذلك الى راي: ان الخطأ مع المشورة اصلح من الصواب مع الانفراد والاستبداد[٢٧].

من الامور اللطيفة التي ينتبه اليها إبن الطقطقى، المقولة التي تقول: ان الناس على دين ملوكهم. ان الناس دائماً يقلدون ملوكهم في الزي واللباس والآداب، والناس تترك ماهو مستجهن عند الملوك. أن هذه حقيقة تنطبق في كل زمان ومكان، اذ ان العامة تقلد دائماً كبار القوم وارباب السلطان. الشئ الذي الاحظه ولابد ان اشير اليه هنا، ان ابن الطقطقى كمؤرخ عندما يذكر ملوك العرب ودولة الاسلام يمر ازاء ذلك مرور الكرام، اما الآخر وهو يشير الى عادة تقليد الناس لملوكهم، فعندما يذكر كيف ان الناس غيروا زيّهم وبدأوا يقلدون ازياء ملوك دولة المغول، اقول انه ما ان ذكر حكم دولة المغول حتى اردف متزلفاً: اسبغ الله احسانها وأعلى شأنها[٢٨]. اعتقد انه لاحاجة للمؤرخ الموضوعي ان ينزلق الى مثل هذه المزالق، فكيف به اذا ما عرف ان هذه الدولة محتلة غازية غريبة عن اهل البلاد؟.

يذكر الكاتب بعد ذلك سبع خصال ذميمة لاتليق بالملوك وعليهم تجنبها، ويبدو ان صاحب الفخري قد استعارها من ابن المقفع[٢٩] الخصلة الاولى الذميمة او الرذيلة التي يجب ان يتجنبها الملك، هي رذيلة الغضب، لان الملك له القدرة وليس هو بحاجة الى الغضب. الثانية الا يكذب لانه لايقدر احد على الزامه بغير ما يريد: الثالثة البخل فليس له عذر للخوف من الفقر، الرابعة الحقد، ولانه قادر على رد الاساءة: الخامسة الحلف، فلا موجب هناك يحمله على اليمين، لان الناس تصدقه، السادسة الحدة، لان ربما صدر عنه فعلاً يندم عليه حين لاينفع الندم. السابعة الضجر والسأم والملل، وكل ذلك من أضرّ الامور وافسدها لحاله.

يرى ابن الطقطقى ان الملك على رعيته حقوقاً، وان لهم عليه حقوقاً، فاما الحقوق التي تجب للملك على رعيته فمنها الطاعة، وهي الاصل الذي ينتظم به صلاح امور الجمهور ويتمكن به الملك من الانصاف للضعيف من القوي، والقسمة بالحق[٣٠] كلام جميل وحقيقي، اذ لابد ان يكون الانسجام والتفاهم بين رئيس الدولة وشعبه، ولكن ابن الطقطقى بعد هذا لايستطيع ان يخفي صبغته المغولية، اذ يردف مستشهداً:

«لم ينقل في تاريخ ولا تضمنت سيرة من السير ان دولة من الدول رزقت من طاعة جندها ورعاياها مارزقته هذه الدولة القاهرة المغولية، فان طاعة جندها ورعاياها لها طاعة لم ترزقها دولة من الدول»[٣١] يضرب بعدها الامثلة من التأريخ الاسلامي، ويتجاوز فترة حكم الخلفاء الراشدين، لانهم كما يقول كانوا يعيشون بقبس النبوة ونوره. حياتهم بسيطة وحكمهم عادل. ينتقل بعد ذلك الى ضرب مثل من الدولة الاموية فيقول ان بني هاشم في المدينة كانوا لايأبهون بالدولة الاموية. والدولة العباسية، على الرغم من ان مدتها تجاوزت خمسمائة سنة، وعلى الرغم من قوة الخلفاء في العصر الاول كالمنصور والمهدي والرشيد والمأمون والمعتصم، لكن دولتهم لاتخلو من ضعف ووهن، مثل امتناع الروم عليهم وقيام الحروب بينهم وبين ملوك الروم. وكذلك من اسباب الوهن في دولتهم خروج الخوارج في كل

www.dorat-ghawas.com

وقت. وخروج العلويون على المنصور. ما جرىٰ للمعتصم مع اهل عمّورية مشهور، وخروج الزنج على الموفق بن المتوكل، أما المتأخرون من خلفاء بني العباس فقد اقتصروا في آخر الامر على مملكة العراق فحسب[٣٢].

وقد يكون ما ذكره ابن الطقطقىٰ في تأريخ الدولة الاسلامية فيه شيٌ من الصحة، لان دولة مترامية الاطراف من الاندلس الى الصين، تضم اقواماً مختلفة من البشر في اللون واللغة والعنصر، فلا عجب اذن اذا ظهر معارض هنا او حدثت ثورة هناك. ان مثل هذا الامر يحدث في اية دولة كبيرة تتعدد اصول شعوبها وتتباعد في المكان، سواء في العصور القديمة أو الحديثة. الشيٌ الذي يحاسب عليه ابن الطقطقىٰ أنه يصف دولة المغول بانها الدولة الوحيدة في التأريخ، التي حظيت بطاعة جندها ورعاياها كما لم تحظ مثل ذلك اية دولة من الدول. اننا نعلم ان الحقيقة تقول غير ذلك، فاذا كان المغول قد اسسوا دولتهم بالبطش والقسوة وهدم المدن واستباحة الشعوب، فان الشعوب لم تستكن لهم، وان الرعية لم تحظهم الطاعة كما يحلو لابن الطقطقى ان يقول متباهياً.

اننا نعلم جيداً ان السلطان قطز قد رد المغول مدحورين في موقعة عين جالوت، وان جيوش الظاهر بيبرس قد وصلت الى قرب هيت، وهي تطارد فلول التتار، كما ان الانقضاض على جيوش المغول كان يحدث بين فترة واخرى في ربوع الشام. هذا خارج نطاق حكم المغول في العراق، اما في العراق وفي بغداد بالذات عاصمة المملكة فقد كان الوضع اسوأ من ذلك بكثير، فقد ازدادت الفتن والاضطرابات والقلاقل، وانحدرت الحالة الى درجة كبيرة من الفوضىٰ في ايام اباقا خان خان نفسه ابن هولاكو ٦٦٣هـ - ٦٨١هـ[٣٣]. كما إن الشطار والعيارين خلقوا الفتن والاضطرابات واقلقوا الراحة العامة وعكروا صفو الامن[٣٤]، وقد كثر الاعتداء على الناس الآمنين وسلبهم في هذه الفترة بالذات، بسبب نزوح القبائل البدوية الى النهب والسلب[٣٥]. وقد نهب الشطار الدكاكين والدور في بغداد، وصاحب ذلك القتل والفوضىٰ، وكان ذلك سنة ٦٩٠هـ.[٣٦].

كما يذكر ابن الطقطقى ان من الحقوق الواجبة للملك على الرعية، التعظيم والتفخيم لشأنه في الظاهر، وتعويد النفس ذلك ورياضتها بحيث تصير ملكة مستقرة. وتربية الاولاد على ذلك وتأديبهم به ليتربىٰ هذا المعنىٰ معهم[٣٧]. هذا لاشك كلام معقول اريد به حق، ولكن ابن الطقطقىٰ ما ان يذكر الملك المغول في عصره حتى يقول متزلفاً: «وان سلطان هذا العصر ثبت الله قواعد دولته وبسط في الخافقين ظل مَعْدلته»[٣٨] وعندما يأتي ذكر الدولة المغولية الوثنية يقول بخنوع ظاهر:

«والحضرة السلطانية أعلى الله في الدنيا كلمتها وفي الآخرة درجتها»[٣٩].

كذلك من الحقوق الواجبة للملك على رعيته النصيحة، ويأتي ابن الطقطقىٰ بالحديث الشريف مستشهداً: «الدين النصيحة» قيل لمن يارسول الله، قال: «لله ولرسوله ولجماعة المسلمين». كذلك يوحي ابن الطقطقىٰ ترك اغتياب الملك[٤٠].

في الوقت ذاته يذكر صاحب الفخري ثلاثة حقوق واجبة للرعية على الملك. اولها حماية ساحة المملكة وسد الثغور وتحصين الاطراف وأمن السوابل وقمع الدعّار، فهذه حقوق تلزم السلطان تجري مجرىٰ القروض الواجبة، وبهذه الامور تجب طاعته على رعيته[٤١] وثانيها فان على الملك الرفق بالرغبة والصبر على ما يصدر من هفواتهم، وقد قال رسول الله (ﷺ): «ماكان الرفق في شيٌ الا زانه»[٤٢] والحق الثالث للرعية على الملك ان يردع قويهم عن ضعيفهم، وانصاف ذليلهم من عزيزهم، واقامة الحدود فيهم، واقرار حقوقهم، واغاثة ملهوفهم، واجابة مستصرخهم، والتسوية في الحكم بين الابعد منهم والاقرب، وبين الاذل والاعز[٤٣].

يستطرد ابن الطقطقى فيما تبقىٰ من الفصل الاول بذكر النصائح والوصايا للملوك: وان هذه النصائح او الوصايا تمزج بين ارشاد الملوك في طرق سياسة الدولة وبين القيام بواجبهم نحو شعبهم، وفي الوقت ذاته مراعاة حقوقهم نحو انفسهم والتفكير في امر منزلتهم في دنياهم. يبدأ وصاياه بتذكير الملك ابن الطقطقىٰ بان عليه ان يشكر الله ويذكره ويتحدث بنعمته، لانه قد اصطفاه من دون سائر الخلق لهذه المرتبة العلية. ان على الملك ان يذكر الله دائماً وبصورة سرية لايعلم بها الا الله، لان تلك حالة تقيه مصارع السوء، وهي في كل الاحوال مقبولة عند جميع الناس لاسيما الحكماء منهم. ان على الملك ان تكون له دعوات يناجي بها ربه، ويذكر ابن الطقطقىٰ مقطوعة ادبية لطيفة خاصة بالدعاء الملكي يقول انها من ابداعه وانشائه، ولابأس ان اذكرها بالنص: «اللهم اني ابرأ اليك من حولي وقوتي، والجأ الى حولك

www.dorat-ghawas.com

وقوتك، احمدك على ان أوجدتني من العدم، وفضلتني على كثير من الامم، وجعلت في يدي زمام خلقك، واستخلفتني على ارضك، اللهم فخذ بيدي في المضايق، واكشف لي وجوه الحقائق، ووفقني لما تحب، واعصمني من الزلل ولا تسلب عني ستر احسانك، وقني مصارع السوء واكفني كيد الحساد وشماتة الاضداد والطف بي في سائر متصرفاتي، واكفني من جميع جهاتي، يا ارحم الراحمين»[11].

ويرى ابن الطقطقى انه يحسن بالملك اكرام الفضلاء من الرعية ووجوب اختصاصهم بالبر[12]. ومما يكره للملك مخالطة الانذال والسوقة والجهال، لان الملك اذا ما سمع الالفاظ الساقطة ومعانيها المرذولة تحط من همته وتضع من منزلته ويزري ذلك بالملك. ان الملك جدير بمخالطة الاشراف ومعاشرة الافاضل من الرجال، لان ذلك يعلي همة الملك ويذكي قلبه ويبسط لسانه. يعطي ابن الطقطقى بعد ذلك بعض الامثلة التي يستشهد بها على ان اكثر الملوك وربما كلهم يدخلون اليهم عوام الرعية ويعاشرونهم ويستخدمونهم، وان في ذلك مضرة لهم، ولاسيما اذا ما وصل احد من هؤلاء الى التدخل بامر المملكة فيسئ الى المملكة والملك[13].

وينبغي على الملك الفاضل الذي يريد ان يكمل فضله، ان يكون عالي الهمة رحيب الصدر، محباً للرياسة معداً لها اسبابها، غير مخلد الى التنعم ولاجانح الى الترف ولا منهمك في اللذات. يورد بعد ذلك ابن الطقطقى بعض الامثلة والاشعار من الادب العربي يوحي للملك بان عليه ان يكون عالي الهمة كبير النفس. اننا نتفق مع ابن الطقطقى في هذا، لان مثل هذا يجب عليه ان يكون الملك ويمثل هذا الادب يجب ان تتأدب الملوك، الشئ الذي يعارض عليه ابن الطقطقى ولا نتفق عليه باية حال من الاحوال انه يغري الملك في توسيع مملكته[14]، هذا لاشك ظلم واجحاف للملك لانه يوصيه بظلم الآخرين، وهذا في الوقت ذاته اعتداء على ارض وممتلكات الآخرين. ربما يعطي العذر لابن الطقطقى لو كتب كتابه هذا وسطر وصاياه هذه في زمن الخلفاء المسلمين، لانه وقتذاك ينشد نشر الاسلام وبث الرسالة الاسلامية، فكيف به وهو يعيش في ظل دولة مغولية معتدية، ويحيا تحت ظل ملوك وثنيين ليس همهم الا هدم المدن على ساكنيها، وليس لهم هدف الا ذبح الشعوب وقتلها وتشريدها؟.

يشير صاحب الفخري، ان فضيلة الملك تكمل عندما تكون قوة الاختيار عنده سليمة لم تعترضها آفة فيكون اختياره للرجال اختياراً فاضلاً. ان اختيار الملك لرجاله مهم بالنسبة له كرئيس دولة وبالنسبة لابناء الشعب باعتبار ان رجال الملك هم مساعدوه واعوانه، ولذا فعلى الملك التأني في الاختيار وعدم التسرع لان عواقب ذلك ستكون حسنة او سيئة، عليه وعلى المجتمع. ان على الملك ان يختبر فضائل الرجل الذي يريد ان يصطفيه ويدرس عيوبه ويوازن بينهما، ويرى مدى صلاحية ذلك الرجل ليكون من خواصه المقربين[15].

وينصح ابن الطقطقى الملوك بعدم المبالغة والانهماك في حب النساء، لان ذلك حسب رايه يشغل الملوك عن واجبهم الاساسي بممارسة عملهم في ادارة شؤون الدولة. ان الملك - برايه - او الوزير اذا شغف بامرأة وكرس لها وقته، يخصص جل وقته لها ويصد عن تدبير المملكة حتى يظهر فيها الخلل، وتفسد مصالح الدولة ويتطرق اليها النقص وتدب في اوصالها سبل الضعف والفساد[16].

يرى ابن الطقطقى ان الملك لرعيته كالطبيب للمريض[17]، وهذا وصف سبقه اليه الكثير من فلاسفة اليونان والاسلام، اذ ان منهم من يشبه الملك بالنسبة لرعيته كالطبيب للمريض، ومنهم من يشبه الملك بالنسبة للرعية كرب الدار لاهل داره[18]، المهم ان الكاتب هنا يشبه رئيس الدولة بالطبيب، وعليه ان يعرف مزاج رعيته حسب أصنافهم ومدى سعة ثقافتهم. الافاضل من الناس مثلاً يساسون بمكارم الاخلاق والاشاد اللطيف، والاوساد يساسون بالرغبة الممزوجة بالرهبة، والعوام يساسون بالرهبة والزامهم الجدد المستقيم، وقسرهم على الحق الصريح، ابن الطقطقى يوصي الملك بان يتهدد من يكفي في تأديبه بالاعراض والتقطيب، ولا ينبغي للملك ان يحبس من يكفي في تهذيبه التهديد، والا يضرب من يكفي في تأديبه الحبس، والا يقتل بالسيف من يكفي في تهذيبه ضرب العصا. المهم ان على الملك ان يدرك صلاح امر الرعية بالطريقة التي يعالج بها الامور، وان يعطي العلاج المناسب للحالة المناسبة، وأن يكتفي بحالة العقاب التي تصلح من شأن الفرد والرعية، وهذا بلا ادنى شك يحتاج من الملك الى لطف حدس وصحة تمييز وصفاء خاطر ويقظة تامة وفطانة كاملة، فيتبين له اختلاف الاخلاق في الناس وتباين الامزجة والطباع.

www.dorat-ghawas.com

ويحذر ابن الطقطقى الملك من التسرع في القتل وازهاق النفوس، لان الحياة واحدة في الدنيا، لذا فعلى الملك ان يتأنى كثيراً ويتروى ويتثبت وتقوم عنده الادلة كاملة على وجوب القتل. وحتى اذا وقع القتل على احد من الرعية، فلا داعي للتمثيل بالمقتول. يضرب ابن الطقطقى مثلاً بسيدنا علي بن ابي طالب رضي الله عنه، بعد ان ضربه ابن ملجم، اذ جمع اولاده واوصى ان يضرب بالسيف ضربة واحد دون ان يمثل به[٥٢].

يشير ابن الطقطقى الى فوائد التأني والتثبت في القتل، الأمن من الندم حيث لايجدي الندم، ويقول ان افاضل الملوك والخلفاء كانوا يستعملون هذه الخصلة، ولا يسرعون الى قتل رجل معروف مشهور خوفاً من ان يحتاجوا اليه بعد ذلك، ولذا كانوا يحبسونه في دورهم، حتى اذا احتاجوا اليه اخرجوه مكرماً وقد تأدب في الوقت ذاته وتهذّب. كذلك بعض الملوك من هو معجب بنفسه، ويحب ان ينتشر عنه حديث صرامة قاهرة فيستهين بالقتل ويبادر اليه، وغرضه اثبات الهيبة واقامة السياسة. ان ابن الطقطقى يرى في ذلك خطراً على الملك نفسه، لان الصواب ان يكون كارهاً للقتل صادفاً عنه مهما امكن، حتى تدعو اليه ضرورة ليس فيها حيلة، فحينئذ يقدم عليه بنفس قوية وجنان ثابت، لان قتل واحد اصلح من تركه حتى يحتاج الى قتل خمسة، وقتل خمسة خير من تركهم حتى يدب فسادهم، فتبلغ الحاجة الى قتل مائة[٥٣] واذا اراد الملك انزال العقوبات، فان على الملك الكامل ان ينعم النظر في ذلك ايضاً، لان اصناف العقوبات موكّل الى نظر الملك الفاضل، وبحسب ما تقتضيه الحالة التي من اجلها يريد انزال العقوبة، لا من اجل ان يشفي غيظ صدره. يعترف صاحب الفخري بعد ذلك، الى ان هذا مقام صعب لايرتقي اليه احد الا من اخذ التوفيق بيده[٥٤].

ويكره للملك الانهماك في اللذات وسماع الاغاني، ويأتي ابن الطقطقى بثلاثة امثلة[٥٥] على ملوك سقطوا، وينسى الكثيرين ممن كانوا يقضون الليالي في اللهو والمجون: الملوك الذين يذكرهم ابن الطقطقى هم جلال الدين بن خوارزم شاه، الذي قضى عليه المغول، والامين الذي كان الفرس سبباً في اندحاره وقتله، والخليفة المستعصم الذي انتهت على يديه الدولة العباسية. سقوط الدول ليس متوافقاً على انهماك الملك في اللهو فقط، وانما هناك عوامل عديدة تفعل فعلها، مثل الفساد الداخلي المستشري في جسد الدولة، والغزو الخارجي ومدى قوته، ابن الطقطقى كاتب من كتاب الدولة المغولية وداعية من دعاتها، ولذا فلا يعتمد على حكمه بوضع المسؤولية كاملة على المستعصم. فهو يقول ان المستعصم آخر الخلفاء كان شديد الكلف باللهو واللعب وسماع الاغاني، لايكاد مجلسه يخلو من ذلك (ساعة واحدة)! وكان ندماؤه وحاشيته جميعهم منهمكين معه على التنعم واللذات، لايراعون له صلاحاً[٥٦]. المبالغة واضحة في حكم المؤلف على المستعصم والتحامل بيّن، لاسيما وانه في الوقت ذاته يمتدح الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي[٥٧]، على سلوكه وادبه، مع اننا نعلم جيداً ان المستعصم ليس كما يصفه المؤرخون الذين باعوا انفسهم وقلمهم لملوك الدولة الا بلخانية مثل ابن الطقطقى وانما كان رجل ورع وتقوى؛ وان السبب الرئيس في سقوط الدولة العباسية على يديه، هو خيانة الوزير ابن العلقمي ومكاتبته لهولاكو وتسريح الجيش العباسي وفتح ابواب بغداد امام الجيش الغازي، وخداع الخليفة نفسه واركان الدولة والعلماء والفقهاء بوجوب حضور دعوة هولاكو خارج اسوار بغداد للمصالحة، مع انه يعلم ان هولاكو بيت قتلهم جميعاً. وماذا يقول ابن الطقطقى عن اخلاق الوزير العلقمي، الذي ارتضى لنفسه بعد ان كان وزيراً لدولة عريقة مسلمة، ان ينحدر الى وزير بائس في دولة وثنية ظالمة معتدية. ان بعض المصادر تشير الى ضعف الخليفة المستعصم[٥٨]، ولكن مع ذلك فان المصادر التأريخية تذكر ان المستعصم مجرد ان سمع بتحرك المغول في الشرق، فانه اعد العدة ووزع السلاح على القادرين على حمله، واستنفر اهل المدن والاعراب من البدو الساكنين في الارياف والبوادي على ضرورة الاستعداد لمحاربة المغول، ووضع المنجنيق على الاسوار ورتب العسكر لحماية بغداد[٥٩].

يوصي ابن الطقطقى بعد ذلك الملك، بوجوب مجازاة الاحسان بمثله وعلى الاساءة بمثلها، لتكون رعيته دائماً راجين لبره خائفين من سطوته[٦٠] ويعطي صاحب الفخري الكثير من الامثلة ويورد الكثير من الاشعار، يبين فيها ان على الملك الفاضل ان يفخر بفضائله التي يتميز بها والآداب التي استفادها والادوات التي استجادها، ولايليق ان يفخر باجداد الآباء والاجداد[٦١]. ويأتي بمثل يقول: ان المملكة تحرس بالسيف وتدبر بالقلم، وكل منهما مكمل للآخر بالنسبة لازدهار الدولة وحمايتها، كما انه يضيف الى ذلك، ان المملكة تخصب بالسخاء وتعمر بالعدل وتثبت بالعقل وتحرس بالشجاعة وتساس بالرياسة[٦٢]، كما يأتي

www.dorat-ghawas.com

ابن الطقطقى بالامثلة الكثيرة، ناصحاً الملوك على الانتفاع من الصديق والعدو، الصديق نفعه معروف، ولكن الملك الحازم من يستميل اعداءه ويلاطفهم ويحسن اليهم حتى تزول عداوتهم حتى يأمن شرهم[٦٣] واستطيع القول ان الفكرة افلاطونية ذكرها افلاطون على لسان سقراط، الذي كان يرى ان العدالة ليست نفع الصديق ومضرة العدو، وانما هي نفع الصديق والعدو معاً، وبذلك نكون قد زدنا في محبة الصديق، وفي الوقت ذاته تجنبنا شر العدو او ربما كسبناه الى جانبنا وجعلنا منه صديقاً ايضاً[٦٤].

ومما يرويه ابن الطقطقى، انه لا يليق بالملك الكامل الافاضة في مجلسه في وصف الطعام والنساء لئلا يشارك بذلك العامة، لان العامة قد قنعوا من عيشهم باليسير واقتصروا عليه وتركوا الامور الكبار، فاذا ارادوا ان يفيضوا في حديث لم يكن لهم الا وصف انواع الاطعمة ووصف اصناف الطعام. يروي بعد ذلك ان على الملك الا يوسع على جنده فيستغنوا عنه ولا يَضيق عليهم فيضجروا منه، بل على الملك ان يعطيهم عطاءاً قصداً ويمنعهم منعاً جميلاً، وان يوسع عليهم في الرجاء ولا يوسع عليهم في العطاء[٦٥] ولا ينسى ابن الطقطقى بعد ذلك ان يشير الى ان رئيس الدولة، ينبغي ان يكون مطبوعاً على المعرفة، مخلوقاً فيه صحة التمييز، مكتسباً للعلم بما جرى في الدنيا من تصاريف الدهور وتنقل الدول، عارفاً بمداراة الاعداء، كتوماً لسره، لان قطب السياسة عليه يدور، وان يستمد لعقله من عقول العقلاء، فان العقل الفرد لايقوم بنفسه وينبغي ان يكون ذا روية عند اشتباه الآراء، وعزيمة عند اختلاف الاهواء[٦٦].

الحزم عند ابن الطقطقى هو الاصل الذي يبنى عليه في تحصين المملكة. يستشهد بعد ذلك بالامثلة التي تؤيد رايه، فيذكر ان أحزم الملوك من ملك جده هزله، وقهر رايه هواه. ان الملك الحازم من يتفقد عيوب نفسه ومعالجتها، وان أحزم الملوك من تقدّم باحكام الامر قبل نزول حاجته، وتدارك المهم الخطر قبل وقوعه[٦٧].

حفظ السر فضيلة، ولذا يجب على الملك الفاضل امعان النظر في امر الاسرار وصونها، وحراستها من الافشاء والذياع، فكم من مملكة خربت، وكم من نفس تلفت بسبب ظهور سر واحد. ان حفظ السر وكتمانه من افضل ما اعتنى به الانسان، وقد جاء في الحديث الشريف: «من كتم سره ملك امره».

يذكر ابن الطقطقى انه ما اعتنت دولة بتحصين الاسرار والمبالغة في حفظها كالدولة العباسية، فان لها من هذا الباب عجائب، وكم من نعمة ازالوها من اربابها، ونفس ازهقوها بسبب كلمة منقولة او حكاية مقولة. ويستطرد صاحب الفخري بعد ذلك بذكر القصص والاشعار والحكايات التي تؤيد رأيه في فضيلة حفظ السر ومزاياه[٦٨].

ومن الامور التي يجب على الملك تدقيق فيها والتأني في تأملها، حديث السعايات والنمائم. كم من ساعٍ او نمام قد شفي غيظه بايقاع مسكين بين يدي ملك قاهر في تهمة هو بريء منها، ثم اشتبه الامر على الحاكم فاهلك الرجل البريء بغير ذنب، ثم لما علم الحال ندم حين لا ينفع الندم. في هذه الحالة يعم الضرر لثلاثة الساعي والمسعي اليه والمسعي به، ولذا فقد جاء في القرآن الكريم «ياايها الذي آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين»، ومما جاء في الحديث الشريف: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يرفعن الينا عورة اخيه المسلم»[٦٩].

ومن الامور المهمة للملك حسن نظره في ارسال الرسل، لان بالرسول يستدل على حال المرسل. ويجب ان يكون في الرسول خصال، منها العقل ليميز به الامر المستقيم من المعوج، والامانة والعفاف لئلا يخون مرسله. يذكر بعد ذلك ابن الطقطقى الكثير من الحكم والاشعار والقصص والحكايات، منها ما ينصح بوجوب حفظ الامانة والرسالة، ومنها ذكر وقائع يخون فيها الرسل رسالتهم وينحرفون عن الطريق الحق[٧٠].

ويرى ابن الطقطقى ان مما يزين الملك اصطناع العوارف الى اشراف رعيته، فبذلك تميل اعناقهم اليه، ويدخلون بذلك في زمرة خدمه وحاشيته، وان افاضل الملوك يلحظون هذا المعنى، فيفضلون دائماً على اشراف رعيتهم انواع الافضال، ليسترقوهم بذلك[٧١].

تعود اهمية كتاب ابن خلدون المعنون بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، اقول تعود اهمية الكتاب لمقدمته التي اشتهر بها ابن خلدون كفيلسوف تاريخ ومنشئ علم الاجتماع.

الذي يلفت النظر ان التشابه بين كتاب الفخري في الآداب السلطانية وبين كتاب ابن خلدون. ابن الطقطقى قسم كتابه الى قسمين الجزء الاول منه تحدث عن سياسة الملك واحوال

www.dorat-ghawas.com

الملوك واوصافهم وواجباتهم تجاه انفسهم شعوبهم، والجزء الثاني الذي هو القسم الاكبر، كتب ابن الطقطقى تأريخ الدولة الاسلامية منذ زمن الخلفاء الراشدين وحتى سقوط بغداد. ابن خلدون فعل الشيْ نفسه، اذ انه في حقيقة امره كتب كتاباً في تأريخ الملة الاسلامية قدمه بمقدمة واسعة. الفرق بين الكتابين ان كتاب ابن الطقطقى مختصر سواء في جزئه الاول او الذي هو عبارة عن دراسة الامور السلطانية، او القسم الثاني وهو الاوسع. الذي تتبع فيه سير الخلفاء ووزراءهم، بينما كتاب ابن خلدون ضخم وواسع ومفصل ومتشعب، لاسيما المقدمة التي اشتهر بها المؤلف وخلد.

ليس من السهل اطلاق الحكم على ان ابن خلدون قد قرأ كتاب الفخري، لان لاتوجد متشابهات تشير الى وقوع الحافر على الحافر كما يقولون، ولكننا نعلم ان ابن خلدون قاضي اطلع على كتب التراث السابق عليه وقرأ التأريخ قبل ان يكتب كتابه الشهير. ابن خلدون يقول: ان في التأريخ من الفنون التي تتداوله الامم والاجيال، وتشد اليه الركائب والرحال[٣٢] ويقول في مكان آخر انه طالع كتب القوم وسبر غور الامس واليوم[٣٣] ويشير ابن خلدون الى ان فن التأريخ جم الفوائد شريف الغاية، اذ هو يوقفنا على احوال الماضي من الامم في اخلاقهم، والانبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم[٣٤].

ابن خلدون يستشهد بالقرآن الكريم في كثير من الصفحات عندما يريد ان يسند رايه، كذلك نجده يذكر الامثلة عن الملوك والخلفاء عندما يحاول التحدث عن قضية من القضايا، وكذلك فعل ابن الطقطقى كما رأينا. ابن خلدون مثلاً يدافع عن الرشيد وعن المأمون عندما يتهمهما بعض المؤرخين بانهما من اصحاب الخلاعة والمجون، بينما يؤكد ابن خلدون انهما صاحبا ورع وتقوى[٣٥] يعطي ابن خلدون رايه في الطبيعة البشرية فيقول ان الناس متطلعون الى الدنيا واسبابها من جاه او ثروة، وليسوا في الاكثر براغبين في الفضائل ولامتنافسين في اهلها[٣٦]. المعنى نفسه نجده عند ابن الطقطقى، وان اختلف الاسلوب، فابن الطقطقى يقول في ذلك: الناس مركبون على الخطأ، مجبولون على تشمير الطباع[٣٧].

يعطي ابن خلدون في مكان آخر اهمية كبيرة للمال في تدبير وتثبيت سياسة الدول، فهو يقول: ان الملك لايتم عزه الا بالشريعة والقيام لله بطاعته، والتصرف تحت امره ونهيه، ولاقوام للشريعة الا بالملك ولاعز للملك الا بالرجال، ولاقوام للرجال الا بالمال[٣٨].

يعزز ابن خلدون رايه بضرب الامثلة من حياة الملوك السابقين على عصره. الشيْ ذاته تناوله ابن الطقطقى، وذهب المذهب ذاته في اثر الملك وقوة الدولة، ولا ينسى كذلك عن ضرب عدة امثلة من حياة الخلفاء المسلمين من امثال ابي جعفر المنصور والمستعين والمعتز، وما جرى لهم بسبب المال من قوة وثبات امر بالنسبة للمنصور، او خلع وقتل بالنسبة للمستعين والمعتز من خلفاء الدولة العباسية[٣٩].

قرأنا في صفحة سابقة من كتاب الفخري ان ابن الطقطقى يوصي الملك بسياسة رعيته وتفقد احوالهم، واكرام الافاضل منهم وتأديب الضالين، حتى انه يشبه الملك بالنسبة لرعيته كالطبيب للمريض[٤٠] وهذا ابن خلدون يقول ان رأس كل اصلاح هو افتقاد الملك حال رعيته بنفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها ولاتملكه[٤١]. كذلك يعطي ابن الطقطقى اهمية للعدل في اقامة الدول واعمار الاحوال واستصلاح الرجال في اماكن كثيرة مختلفة من كتابه معززة بالامثلة والوقائع[٤٢] ابن خلدون هو الآخر يعطي اهمية كبرى لفضيلة العدل الذي بها قوام العالم، كما يقول[٤٣].

أشرت في صفحة سابقة كيف ان ابن الطقطقى ذكر ان الناس يقلدون ملوكهم فاذا احب الملك شيئاً احبه الناس، واذا ابغض شيئاً ابغضه الناس... الخ[٤٤]. استوقفني الامر ذاته وانا اقرأ مقدمة ابن خلدون متفحصاً ودارساً، ان ابن خلدون يخصص الفصل الثالث والعشرون من الباب الثاني للشيْ ذاته، تحت عنوان: في ان المغلوب مولع ابداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر احواله وعوائده. يشرح ابن خلدون رايه في ذلك فيقول ان السبب في ذلك ان النفس ابداً تعتقد ان الكمال في من غلبها وانقادت اليه، وأما لنظره بالكمال بما وفر عندها من تعظيمه او لما تغالط به من ان انقيادها ليس لغلب طبيعي، انما هو لكمال الغالب، فاذا غالطت بذلك واتصل لها اعتقاداً فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء». المهم هنا ان ابن خلدون ينهي الفصل بكلمات تشابه كلمات ابن الطقطقى، في المعنى والبنى، فابن خلدون يقول ما هذا نصه: «وتأمل في هذا سر قولهم، العامة على دين الملك، فانه من بابه اذ الملك غالب لمن تحت يده، والرعية مقتدون به الاعتقاد الكمال

www.dorat-ghawas.com

فيه اعتقاد الابناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم»[٨٥].

ويحذر ابن الطقطقي الملوك من اللهو واللعب والانهماك في الملذات وترك مصالح الدولة، ويعطي الأمثلة على بعض ملوك الدولة الاسلامية من المتأخرين الذين ملكوا في عصور التأخر والتدهور[٨٦] ابن خلدون هو الآخر يخصص فصلاً كاملاً عن علاقة الملك بالترف، فيقول ان الأمة اذا تغلبت وملكت ما بأيدي اهل الملك قبلها، تكثر نيلها ونعمتها، فتكثر عوائدهم ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته الى ما فوقه ورقته وزينته، ويذهبون الى اتباع من قبلهم في عوائدهم، واحوالهم وتصير الملك النوافل عوائد ضرورية في تحصيلها، ويترتبون مع ذلك الى رقة الاحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية[٨٧].

ابن الطقطقي ينصح الملوك بعدم القسوة مع رعيتهم، بل عمل الملك ان يسوس الأفاضل من الناس بمكارم الاخلاق والأوساط بالترغيبة المميزوجة بالرهبة، والعوام بالالزام الجند المستقيم، وقسرهم على الحق الصريح. ابن الطقطقي يضيف قائلاً: لا ينبغي للملك ان يتهدد من يكفي في تأديبه الاعراض والتغطيب، ولا ينبغي ان يحبس من يكفي في تأديبه التهديد، ولا ينبغي ان يضرب من يكفي في تأديبه الحبس، ولا ان يقتل بالسيف من يكفي في تأديبه ضرب العصا[٨٨] ابن خلدون يخصص الفصل الرابع والعشرين من الكتاب الثاني، في ان الاوهاط الجند مضر بالملك ومفسد له في الاكثر، وبما جاء في الفصل على لسان ابن خلدون، ان الملك اذا كان قاهراً باطشاً بالعقوبات، ممتنعاً عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم، شملهم الخوف والذل ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة، فتخلقوا بها وفسدت بصائرهم واخلاقهم، واذا كان رفيقاً بهم متجاوزاً عن سيئاتهم، استلأموا اليه واشربوا محبته واستماتوا دونه في مخاربة اعدائه، فاستقام الامر من كل جانب[٨٩].

يذهب ابن الطقطقي الى ان المملكة تحرس بالسيف وتدبر بالقلم، ولكنه لم يقرر هو نفسه ايهما اجدى للملك واكثر نفعاً وفي اي وقت، وانما يستشهد برأي غيره دون ان يعطي الرأي القاطع. انه يضيف مستطرداً: واختلفوا في السيف والقلم ايهما افضل واولى بالتقديم، فقوم يرون ان يكون القلم غالباً للسيف، واحتجوا على مذهبهم بأن السيف يحفظ القلم، فهو يجري مجرى الحارس والخادم، وقوم يرون ان يكون السيف هو الغالب، واحتجوا بأن القلم يخدم السيف لأنه يحصل للاصحاب السيوف اوزارهم فهو ككالخادم له، وقوم قالوا انهما سواء، ولا غنى لاحدهما عن الآخر[٩٠] ابن خلدون يخصص فصلاً كاملاً تحت عنوان: في الكتابة ومراتب بين مراتب السيف والقلم في الدول.

وينذهب الى القول الى ان السيف والقلم كلاهما آلة تقتضاحب الدولة يستعين بهما على امره. ابن خلدون يقرر ان الحاجة الى السيف اكثر من القلم في بداية تأسيس الدولة، وان القلم في تلك الحال خادم مقفل للحكم السلطاني، وكذلك الحال في آخر الدولة حين تضعف عصبيته، فتحتاج الدولة الى الاستظهار بأرباب السيوف، وتقوى الحاجة اليهم في حماية الدولة والمدافعة عنها، فيكون للسيف في هذه الاوقات مزية على القلم. اما في وسط الدولة فيشير ابن خلدون الى ان صاحب الدولة يستغني بعض الشيء عن السيف، لانه قد تمهد امره، ولم يبق همه الا في تحصيل ثمرات الملك من الجبلية والضبط ومباهاة الدول، وتنفيذ الاحكام، والقلم هو المعين له في ذلك، فتعظم الحاجة الى تصريفه، وتكون السيوف مهملة في مضاجع اغمادها، الا اذا نابت نائبة او دعيت الى سد الثغور، وعدا سوى ذلك فلا حاجة اليها، فتكون ارباب الاقلام اوسع جاهاً واعلى رتبة واعظم نعمة وثروة، وتقرب من السلطان مجلساً[٩١].

تتوجد تشابهات في الرأي، ومطابقات في اللغة، والاصطلاحات، واستعمال العبارات نفسها، فتلفت النظر، وتجعل الباحث يجزم الى ان مكيافيلي قد اطلع على ككتاب الفخري وفي الآداب السلطانية في صورة من الصور وقرأه في ترجمة لاتينية، او لغة اوربية اخرى، او ربما تقرئ له بلغته العربية ان لم يكن يحسنها وفسرت له مقتضياتها ومرامي السياسية.

يبدأ مكيافيلي الفصل الاول من ككتابه بالعبارة التالية: الاخرج جميع الحكومات والممالك، التي حكمت الجنس البشري في الماضي او التي تتولى حكمه الآن، عين ان تكون في احد شكلين، اما الشكل الجمهوري او الشكل الملكي[٩٢]. وهذا يشابه الى حد بعيد، قول ابن الطقطقي عندما يبدأ ككتابه معروفاً: اما الكلام على اصل الملك وحقيقته، وانقسامه الى رياسات دينية ودنيوية، من خلافة وسلطنة، والمواد فوولاية، وما اكان من ذلك على وجه الشرع وما لم يكن[٩٣] يقرر ابن الطقطقي بعد ذلك ان ككتابه هذا ليس مخصصاً للخوض في الحديث عن هذا الجانب، وانما هو موضوع للسياسات والآداب التي يتخلع بها في الحوادث

www.dorat-ghawas.com

...الرفقة. وفي سياسة الرعية وتحصين المملكة، وفي اصلاح ...الاخلاق والسيرة. انه بكلمة ثنائية نصائح وموصايا الارباب ...السلطان، ومع ذلك نجد التشابه واضحاً في كثير من الجاء في كتاب الامير، مع ان مكيافلي يبتعد في اصل الملكيات وفي الفصول الاولى.

يقول ابن الطقطقي ان الملك الفاضل هو الذي اجتمعت فيه خصلتان وعدمت فيه خصلتان، ولاشك اننا قد ذكرنا ذلك مفصلاً في الصفحات السابقة، ولا داعي الان لتكرارها من اجل المقارنة، وانما نكتفي بذكر معلومات يسوقها مكيافلي في كتابه الامير. يشير مكيافلي الى ان هناك اشياء يستحق عليها الامراء المديح او اللوم، ويعترف مكيافلي صراحة ان الكثيرين قد اسهبوا في الكتابة عن هذا الموضوع، ومن ثم يضيف ان بعض الامراء يشتهرون بمزايا معينة، فقد تكون سبباً في اضفاء المديح او اللوم عليهم. وهكذا فقد يعتبر احد الامراء كريماً بينما يعتبر الآخر شحيحاً، الاول يعتبر رجيماً والثاني قاسياً، ان من الصفات المحمودة في الامير ان يتصف بالصفات التي تومز الى الخير[٩٩] يرى مكيافلي ان من الخير ان يعتبر الانسان كريماً سخياً، ولكن على شرط ان تكون عاريته على شكل فضيلة وبالطريقة الصحيحة، لأن الامير الذي يطنب في السخاء قد يستنزف جميع امكانياته، ويجد نفسه مضطراً في النهاية الى فرض ضرائب ثقيلة على شعبه، فما يؤدي الى كراهيه شعبه له، ان على الامير الذي يتصف بالحكمة، والعقل، ان يتجنب رذيلة البخل، ومع ذلك يكون كريماً بمقدار ما يتجنب شعبه الفقر، ويقوم بمشاريع كثيرة، دون ان ينهب خيرات الآخرين، ودون ان يرهق شعبه فيلحق به الدمار[١٠٠].

يناقش مكيافلي في عدة صفحات مسألة الرأفة، والقسوة، وهل من الخير ان يكون الامير محبوباً او مهاباً. انه يرى ان على الامير ان يكون رحيماً لا قاسياً، ولكن على سبيل ذلك، ان لا يسيء استعمال هذه الرحمة. ان من واجب الملك اقامة النظام، وتجنب الاضطرابات. ينتهي مكيافلي الى انه من مصلحة الامير أن يكون محبوباً ومهاباً. وعندما يرى ان من العسير ان يجمع بين الامرين، فانه من الافضل للأمير ان يكون مهاباً، ولكن مع ذلك عليه ان يتجنب الكراهية[١٠١].

وقد رأينا في الصفحات السابقة ان ابن الطقطقي يرى ان الملك ينبغي ان يكون مهاباً ومحبوباً. ابن الطقطقي يعالج ايضاً الفرق بين الملك الظاهر والملك الضعيف[١٠٢].

مكيافلي يرى ان من الواجب على الامير ان يحافظ على عهوده، لأن من الصفات المحمودة للأمير ان يكون صادقاً في وعوده، وان يعيش في شرف ونبل لا في مكر ودهاء. ومع ذلك فان مكيافلي يستدرك ويقول ان تجارب العصر اثبتت ان الامراء الذين قاموا بجلائل الاعمال، لم يكونوا كثيري الاهتمام بعهودهم والوفاء بها، ان مكيافلي ينصح الامير ان يجعل عقله مستعداً للتكيف مع الرياح، ولكن مع ذلك عليه ان ان يجعل الناس يرون فيه ويسمعون منه الرحمة بحسنة، والوفاء للعهود، والنبل والانسانية والتدين[١٠٣]. ابن الطقطقي جعل الوفاء بالعهد صفة اساسية في الملك، واستشهد بالآية الكريمة: «واوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولاً»[١٠٤].

خصص مكيافلي فصلاً كاملاً، يعالج فيه كيفية تجنب الامير للتعرض للاحتقار والكراهية، وذلك بعدم الاعتداء على املاك عامة الناس واعراضهم، وعليه في الوقت نفسه ان يكسح معظم القلة ايضاً. ان الامير يعتبر دنيئاً حقيراً اذا رأى الناس فيه تقلبه، وتفاهته وتخنثه وجبنه. على الامير اذن ان يخلق سمعة حسنة عند رعاياه، وان يكتسب الاصدقاء المخلص. ان في الوسيلة لتجنب المؤامرات الداخلية أو الاعتداءات الخارجية، هو الا يكون الامير محتقراً من جماهير شعبه. ان الامير لا يخشى احداً من المتآمرين اذا كان الشعب راضياً عنه. ينتهي مكيافلي الى ان الكراهية كانت دائماً العامل في سقوط الامراء[١٠٥].

يشير مكيافلي في الفصل الخاص ببناء القلاع، وهل هي ذات فائدة للامير اولا، وكذلك يناقش مشكلة تسليح الشعب، وهل هي مفيدة للامير او ضارة به، انه يستصوب ان يسلح الامير رعاياه لدرء خطر خارجي. بعد هذا ينصح مكيافلي الامير الذي يحتل دولة جديدة يضيفها الى دولته السابقة، ان ينزع السلاح من اهل تلك الدولة، ولاشك اننا قد رأينا كيف ان ابن الطقطقي يوصي السلطان بتوسيع مملكته[١٠٦] الامير بالنسبة لمكيافلي الذي يستحق الشهوة، ذلك الذي يقدم على المشاريع العظيمة، والذي يقوم بجلائل الاعمال. ينبغي على الامير ان يقلم بعض الاظافر البارزة التي تدل على عظمته في الاذاوة الداخلية.

اما بالنسبة للخارج فعلى الامير ان يتجنب الاورتباط في قضية مشتركة مع المير اقوى منه، لان انتصار الآخير سيجعله

www.dorat-ghawas.com

تحت رحمته. على الامير دائماً ان يكافئ المتفوقين من ابناء بلده، وان يكون ميالاً الى ذوي الكفاءة والجدارة وان يفضل المقتدرين، ويكرم النابغين في كل فن، وان يشجع في الوقت نفسه مواطنيه على المضي في اعمالهم، سواء في حقول التجارة او الزراعة او اية مهنة يمتهنها الناس. على الامير ان يقدم المكافآت لكل من يعمل في هذه الحقول، ولكل من يسعى بمختلف السبل لتحسين مدينته او دولته. على الامير ان يهتم بجميع فئات الشعب، وان يقدم لهم مثلاً على انسانيته وجوده، محتفظاً دائماً بجلال منصبه ووقار مكانته[١٠٢].

يعطي مكيافلي اهمية خاصة لاختيار وزراء الامير، فهم برايه اما ان يكونوا لائقين، او لايتفقون مع فطانة الامير وحسن تبصره بالامور. يذهب مكيافلي بعد هذا الى القول ان كيفما يكون الامير يكون وزراءه، فعندما يكون الوزراء اكفاء مخلصين، يتأكد الانسان من حكمة الامير، لانه استطاع تمييز هذه الكفاءة، والاحتفاظ بهذا الاخلاص، اما اذا كانوا على النقيض من ذلك، ففي وسع الانسان دائماً ان يأخذ فكرة سيئة عن الامير نفسه، لان الخطيئة الاولى التي يقترفها تكون في اساءة اختياره. يذكر مكيافلي طريقة مهمة في تمكن الامير من معرفة وزيره، وهي برايه طريقة لاتخطئ ابداً، ذلك ان الوزير النافع من يفكر في الامير، اكثر مما يستهدف مصالحه الخاصة ومنافعه. على الامير في الوقت ذاته، لكي يحتفظ بولاء وزيره واخلاصه، ان يفكر به ويكرمه ويعطف عليه، حتى لايطمع بثروات جديدة، وعندما تسود مثل هذه العلاقة بين الامراء ووزرائهم، فان في وسع كل فريق منهم ان يعتمد على الفريق الآخر، اما اذا كان الوضع على النقيض من ذلك فان النتيجة تكون مضرة لهذا الجانب او ذاك[١٠٣].

يتعرض مكيافلي لمناقشة جوهرية في كيفية الاعراض عن المنافقين الذين طالما تغصى بهم بلاطات الامراء والملوك. ان مكيافلي ينصح الامير بان يختار لمجلسه حكماء الرجال، ويسمح لهؤلاء وحدهم بالحرية في الحديث اليه ومجابهته بالحقائق، على ان تقتصر هذه الحرية على المواضيع التي يسألهم عنها، ولاتتعداها على الامير بعد ان يستمع الى آراء الحكماء من الرجال، ان يدرس الموضوع جيداً على ضوء آراء مستشاريه، ويتخذ قراراته بعد ذلك، حتى تكون آراءه صائبة، وينال التقدير والاحترام. على الامير ان يقبل النصيحة دائماً، ولكن عندما ما يريد هو، لاعندما يريد الآخرون. المهم ان عليه الا يشجع مطلقاً المحاولات لاسداء النصيحة اليه الا اذا طلبها. وعلى الامير ان يحسن الاصغاء الى الحقائق التي تسدد عليه عندما يسأل عنها، وان المشورة الحكيمة حينما جاءت، يجب ان تكون خاضعة لحكمة الامير وتبصره[١٠٤].

الشيء الذي يلفت النظر حقاً ان ابن الطقطقى قد تطرق الى الموضوع نفسه، وتكاد ان تكون الجمل متطابقة في المبنى، مع العلم ان المعنى واحد في الكتابين. ابن الطقطقى يقول: من الامور التي يجب تدقيق الفكر فيها، والتثبيت التام والتأني في تأملها حديث السعايات والنمائم. ويقول في مكان آخر، ان ما يكمل فضيلة الملك ان تكون قوة الاختيار عنده سليمة لم تعترضها آفة، فيكون اختيار الرجال اختياراً فاضلاً[١٠٥].

ينصح مكيافلي الامير الذي يريد ان يقيم دولة ويبعث الازدهار فيها، فعليه ان يحصنها بالقوانين الصالحة والاسلحة القوية والاصدقاء الطيبين. ان على الامير بعد ذلك الاعتماد على نفسه في الاحتفاظ بممتلكاته، لا ان يكون متواكلاً، لانه اضاع امارته فعليه ان يلوم نفسه لا ان يلوم الحظ، ولا ان يلوم الآخرين، ان على الامير ان يثور بنفسه اولاً ويعتمد عليها قبل ثقته بالآخرين من الاعوان او ابناء الشعب[١٠٦]. كذلك نقرأ في كتاب الفخري لابن الطقطقى، ان من الحقوق الواجبة للرعية على الملك حماية البيضة وسد الثغور وتحصين الاطراف. كذلك ينصح بحسن السياسة واختيار الرجال[١٠٧].

ويشير ابن الطقطقى صراحة الى ان المملكة تحرس بالسيف وتدبر بالقلم[١٠٨].

يخصص مكيافلي فصلاً خاصاً، يعالج فيه اثر القدر في الشؤون الانسانية وطرق مقاومته، فيذهب الى ان الكثيرين يعتقدون ان الاحداث الدنيوية يسيطر عليها القضاء والقدر، ويتحكم فيها الله، وان ليس في وسع البشر عن طريق الحكمة والتبصر تغييرها او تبديلها. مكيافلي يقول، مع انني اميل احياناً الى مشاركة اولئك الناس رايهم، لكني مع ذلك اعتقد ان ليس في وسعنا تجاهل ارادتنا تمام التجاهل. كذلك يقول، وفي رايي، ان من الحق ان يعزو الانسان الى القدر التحكم في نصف اعمالنا، وانه ترك النصف الآخر، او ما يقرب منه لنا لنتحكم فيه بانفسنا، مكيافلي يشبه القدر بالنهر العنيف المندفع الذي يغرق عند هيجانه السهول ويقتلع الاشجار والابنية، ولذا ففي وسع الناس اتخاذ الاحتياطات باقامة السدود والحواجز والارصفة لاتقاء الخطر، ان

www.dorat-ghawas.com

القدر اذن يبسط قوته عندما تنعدم الاجراءات لمقاومته، بعد هذا يقول مكيافلي ان الامير الذي يركن كلياً على القدر يحطمه القدر. ان الانسان السعيد من تتفق طريقة اجراءاته مع مقتضيات الزمن. يختتم مكيافلي حديثه بالقول ان الحظ يتبدل، اما الناس فيبقون ثابتين على اساليبهم، وانهم ينجحون طالما ان اساليبهم تتوافق مع الظروف، وعندما تتعارض الاساليب مع الظروف، فان الفشل سيكون من نصيبهم[109] لابد بعد هذا ان نتطرق الى ابن الطقطقى في هذا المجال الذي يقول: الدنيا دول، فما كان فيها لك اتاك على ضعفك، وما كان فيها عليك لم تدفعه بقوتك، لكن ابن الطقطقى مع ذلك لايغفل امر الحيطة والتفريق بين الخير والشر[110].

وارى من الضروري ان اشير في نهاية البحث، الى ان كلا من ابن الطقطقى او مكيافلي، ما ان يأتي اي منهما بحكمة او نصيحة او وصية او تحذير، حتى يذكر بعد ذلك مثلاً من التاريخ يؤيد رايه فيه، او ربما يستطرد، فيشير الى مجموعة من الامثال المؤيدة لقوله من التأريخ القريب او البعيد. ابن الطقطقى بطبيعة الحال، مادته سير الخلفاء والملوك في الدول الاسلامية المتعاقبة منذ زمن الخلفاء الراشدين وحتى زمنه في اواخر القرن السابع الهجري، بينما مكيافلي يضرب الامثال من دول المدن الايطالية المعاصرة له، او ربما يرجع الى تأريخ الرومان واليونان. ان هذا التشابه بين الكتابين يجعل الباحث يتدبر الامر، ويذهب الى ان ذلك ليس من الصدف، وانما مكيافلي قد اطلع على كتاب الفخري بصورة من الصور.

الهوامش والمصادر

١ ـ الزركلي: الاعلام الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٦٩، جـ ٧ ص١٧٤.
٢ ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية، مطبعة المعارف بمصر، د. ت، ص١.
٣ ـ الفخري ص٣. ٤ ـ جمهورية افلاطون ـ الكتاب السادس. ٥ ـ الفخري ص٣. ٦ ـ الفخري ص٤. ٧ ـ الفخري ص٤ ـ ٨. ٨ ـ الفخري ص ٩ ـ ٩. الفخري ص٩. ١٠ ـ الفخري ص٩. ١١ ـ الفخري ص١٠. ١٢ ـ الفخري ص١٠. ١٣ ـ الفخري ص١١. ١٤ ـ الفخري ص١٢. ١٥ ـ انظر: دكتور ناجي التكريتي: الفلسفة السياسية عند ابن ابي الربيع بغداد، ١٩٨٧ ص١٦٤ـ٢١٩.
١٦ ـ الفخري ص١٣ ـ ٢١. ١٧ ـ الفخري ص ١٣. ١٨ ـ الفخري ص١٣.
١٩ ـ الفخري ص ٢٩٤. ٢٠ ـ الفخري ص ١٤. ٢١ ـ الفخري ص ١٥. ٢٢ ـ الفخري ص ١٥ ـ ١٦. ٢٣ ـ الفخري ص ١٦ ـ ١٨. ٢٤ ـ الفخري ص ١٧.
٢٥ ـ الفخري ص ١٧ ـ ١٨. ٢٦ ـ الفخري ص ١٩. ٢٧ ـ الفخري ص٢٠ ـ ٢١. ٢٨ ـ الفخري ص٢١. ٢٩ ـ الفخري ص ٢٢ـ٢٣. وانظر: ابن المقفع: الادب الكبير والادب الصغير (الادب الكبير) بيروت، ١٩٦٠ ص٧٧ ـ ٧٨.
٣٠ ـ الفخري ص٢٣. ٣١ ـ الفخري ص٢٣. ٣٢ ـ الفخري ص ٢٣ـ٢٧ ٣٣ ـ بلقيس عبد الله: اتجاهات الشعر العربي في العراق ٦٥٦ ـ ٨٠٠هـ رسالة دكتوراه، حزيران ١٩٨٣، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة بغداد، مخطوطة في مكتبة القسم، ص١٨. ٣٤ ـ المصدر نفسه ص٢٩. ٣٥ ـ المصدر نفسه ص٣٠.
٣٦ ـ المصدر نفسه ص٣٤. ٣٧ ـ الفخري ص٢٧. ٣٨ ـ الفخري ص٢٧. ٣٩ ـ الفخري ص٢٨. ٤٠ ـ الفخري ص٢٨. ٤١ ـ الفخري ص ٢٨ـ٢٩. ٤٢ ـ الفخري ص٢٩. ٤٣ ـ الفخري ص٣٠. ٤٤ ـ الفخري ص٣٠. ٤٥ ـ الفخري ص٣١. ٤٦ ـ الفخري ص ٣١ـ٣٣. ٤٧ ـ الفخري ص٣٣. ٤٨ ـ الفخري ص ٣٣ ـ ٣٤. ٤٩ ـ الفخري ص ٣٤ ـ ٣٥. ٥٠ ـ الفخري ص ٣٥ ـ ٣٦. ٥١ ـ انظر: افلاطون: كتاب الجمهورية، الفقرة ٣٤٢. ارسطو: الاخلاق النيقوماخية، الكتاب الثامن ـ الفقرة العاشرة، الفارابي: الفصول المدني تحقيق فلوب، كامبرج، ١٩٦١ ص ١١٧ـ١١٨. يحيى بن عدي: تهذيب الاخلاق دراسة وتحقيق ناجي التكريتي، بيروت، ١٩٧٨، ص٢٥٥. ٥٢ ـ الفخري ص ٣٦. ٥٣ ـ الفخري ص ٣٧. ٥٤ ـ الفخري ص ٣٨. ٥٥ ـ الفخري ص ٣٨ـ ٤٢. ٥٦ ـ الفخري ص ٤٠. ٥٧ ـ الفخري ص ٤١. ٥٨ ـ محمد صالح القزاز: الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير النجف، ١٩٧١، ص٣٠٩.
٥٩ ـ بدري محمد فهد: تأريخ العراق في العراق في العصر العباسي الاخير بغداد ١٩٧٣، ص٩١. ٦٠ ـ الفخري ص ٤٢. ٦١ ـ الفخري ص ٣٢ ـ ٤٣. ٦٢ ـ الفخري ص ٤٤. ٦٣ ـ الفخري ص ٤٤ ـ ٥٩. ٦٤ ـ افلاطون: كتاب الجمهورية ـ الكتاب الاول. ٦٥ ـ الفخري ص ٤٩. ٦٦ ـ الفخري ص ٤٩ ـ ٥٠. ٦٧ ـ الفخري ص ٥٠ ـ ٥١. ٦٨ ـ الفخري ص ٥١ ـ ٥٥. ٦٩ ـ الفخري ص٥٥. ٧٠ ـ الفخري ص ٥٩ ـ ٦١. ٧١ ـ الفخري ص ٦١ ـ ٦٢. ٧٢ ـ ابن خلدون: المقدمة مطبعة الكشاف بيروت، دون تاريخ، ص٣. ٧٣ ـ المقدمة ص ٥. ٧٤ ـ المقدمة ص٩. ٧٥ ـ المقدمة ص ١٧، ١٩. ٧٦ ـ المقدمة ص ٣٥، ٢٧٨. ٧٧ ـ الفخري ص ١٧. ٧٨ ـ المقدمة ص ٣٩. ٧٩ ـ الفخري ص ٤٩، ٢١٤، ٢١٥.
٨٠ ـ الفخري ص ٣٥. ٨١ ـ المقدمة ص ٣٩. ٨٢ ـ الفخري ص ١٣ ـ ٢١، ٤٢ ـ ٤٣ ٨٣ ـ المقدمة ص٣٩. ٨٤ ـ الفخري ص ٢١ ـ ٢٢. ٨٥ ـ المقدمة ص ١٤٧.
٨٦ ـ الفخري ص ٣٩ ـ ٤٠. ٨٧ ـ المقدمة ص ١٦٧. ٨٨ ـ الفخري ص ٣٥.
٨٩ ـ المقدمة ص ١٨٨ ـ ١٨٩. ٩٠ ـ الفخري ص ٤٤. ٩١ ـ المقدمة ص ٢٥٧.
٩٢ ـ مكيافلي: كتاب الامير دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٧. ٩٣ ـ ابن الطقطقى: كتاب الفخري ص ١٣. ٩٤ ـ الامير ص ١٣٥ ـ ١٣٧، انظر كتاب الفخري ص ٣١ ـ ٢٠. ٩٥ ـ الامير ص ١٣٨ ـ ١٤١. ٩٦ ـ الامير ص ١٤٢ ـ ١٤٦. ٩٧ ـ الفخري ص ٥٧. ٩٨ ـ الامير ص ١٤٧ ـ ١٥١. ٩٩ ـ الفخري ص ١٩. ١٠٠ ـ الامير ص ١٥٢ ـ ١٦٦، انظر كتاب الفخري ص ١٧ـ ٣٥. ١٠١ ـ الامير ص ١٦٧ ـ ١٧٣، وانظر الفخري ص ٣٣. ١٠٢ ـ الامير ص ١٧٤ ـ ١٧٩. الفخري ص ٢٩ ـ ٣٥. ١٠٣ ـ الامير ص ١٨٠ ـ ١٨٢. الفخري ص٣٣ ـ ٣٤.
١٠٤ ـ الامير ص ١٨٣ ـ ١٨٦. ١٠٥ ـ الفخري ص ٢٨، ٣١، ٣٣، ٥٥ ـ ٥٩.
١٠٦ ـ الامير ص ١٨٧ ـ ١٨٩. ١٠٧ ـ الفخري ص ٢٨ ـ ٢٩، ٣١، ٣٥ ـ ١٠٨ ـ الفخري ص ٤٤. ١٠٩ ـ الامير ص ١٩٠ ـ ١٩٤. ١١٠ ـ الفخري ص ٤٤ ـ ٤٥.

www.dorat-ghawas.com